المقـــدمة

دونالد ماسيدو
آنا ماريا أروجو فريرى

إن كتاب (المعلمون بناة ثقافة : رسائل إلى الذين يتجاسرون على اتخاذ التعليم مهنة) يؤكد موقع باولو فريرى فى صفحات التاريخ على أنه من أعظم التربويين قيمة فى العالم خلال نصف القرن الماضى . وهـذا الكتاب المُلهِم يقـدم إجابة هامة عن " النموذج البنكى " للتعليم السائد فى النظام الرأسمالى ، والذى أدى – ويظل يؤدى – إلى مزيد من الإخفاق فى الأداء التعليمى . وإذ يقرأ المرء رسائل باولو فريرى إلى المعلمين ، والتى يتضمنها هذا الكتاب تتضح له الأسباب التى تدعو كثيراً من التربويين أنصار الليبرالية والليبرالية الجديدة فى أمريكا الشمالية إلى النظر إلى أطروحات فريرى التربوية على أنها البديل . ومن ثم لم يعد موضعاً للنقاش اعتبار آرائه ملائمة لسياقات العالم الثالث وحده.

ومن بين أحد الأسباب ما نشهده من تحول سريع فى أحوال أمريكا الشمالية إلى ظواهر العالم الثالث ؛ حيث أخذت مناطق قلب المدن تتردى تدريجيًّا لتشبه المدن المزرية فى العالم الثالث ؛ حيث تتسم بمستويات عالية من الفقر والعنف والأمية والاستغلال البشرى ، ولمن لا مأوى لهم ولكل صنوف البؤس الإنسانى . ولا شك أن ظاهرة إهمال أواسط المدن والتآكل الرهيب لما فيها من مبان ومدارس ، تجعل من الصعب الإبقاء على ذلك التقسيم المصطنع بين العالم الأول والعالم الثالث. لقد أصبح من السهل أن

نلقى مظاهر تعاسة العالم الثالث فى داخل مدن العالم الأول ، كما أنه من السهل أيضاً أن نصادف تجليات الثراء فى أحياء الفئات الأولجركية المتميزة فى أقطار السلفادور ، وجواتيمالا ، وغيرهما من مدن العالم الثالث .

وقد نجم عن تحول أواسط المدن فى أمريكا الشمالية إلى العولمة الثالثة اتساع دائرة الإخفاق التربوى ، وما ارتبط بها من ارتفاع معدل تسرب الطلاب من الأقليات الذى بلغ حوالى ٥٠% فى مدارس بوسطن ، وأكثر من ٧٠% فى مدارس المدن الكبرى مثل نيويورك .

لقد انسحب التربويون المحافظون على نطاق واسع من إخفاقات هذا المشهد ، فى محاولة لإنقاذ الأوضاع القائمة وللحد من ظاهرة انتشار " الثقافة البنية " من ذوى تلك البشرة فى الولايات المتحدة . لذلك .. فإنهم سعوا إلى إعادة ترتيب المناظرة ، وإلى بناء الخطاب التربوى فى صورة التنافس وخصخصة المدارس . ويكمن المنهج المستتر فى حركة البرنامج المقترح لخصخصة المدارس فى اقتطاع من موارد المدارس الفقيرة ، التى توشك أن تقع فى هوة الإفلاس ؛ من أجل إعانة المدارس الخاصة التى يرتادها أبناء الموسرين . والواقع أن مبدأ " حرية اختيار المدارس الخاصة " إنما هو خاص بمعنى أنه يدر ربحاً خاصاً لتلك المدارس ، بينما هى معانة من الموارد العامة أصلاً . ومما يندر مناقشته فى حوارات التعليم فى أمريكا الشمالية حقيقة أن المدارس الرسمية العامة إنما هى جزء لا يتجزأ من نسيج أى مجتمع ديمقراطى .

والواقع أن التربويين المحافظين يغفلون حقيقة أن أى مجتمع ديمقراطى يتخلى عن مسئولته العامة إنما هو مجتمع ديمقراطى فى أزمة. ثم إن أى مجتمع ديمقراطى يرى أن الخصخصة من أجل الربح هى من مبادئ الديمقراطية إنما هو أيضاً مجتمع مضطرب ومختلط فى أولوياته. كذلك فإن أى مجتمع ديمقراطى يعتقد أن جودة النوعية والإنتاجية والأمانة والكفاءة (دعك من مفاسد القروض والمدخرات وفضائح وول ستريت على سبيل المثال) يمكن أن تتحقق من خلال الخصخصة لتعظيم الأرباح ، إنما هو مجتمع تظهر عليه معالم الإفلاس الفكرى والمعرفى والأخلاقى.

وإذا سلمنا بالرأى القائل بأن الشأن (الخاص هو الأفضل) فعلينا أن نسترجع مرة أخرى سؤال (جاك بيتي) " هل يمكن أن نقيم مشروعاً خاصاً لمؤسسة البنتاجون لتحسين مقومات الدفاع القومى ؟ " ثم هل منطق (الخاص هو الأفضل) سوف يقضى على المشاكل الجارية فى المجال الحربى ، وهى مشاكل تمتد من مستوى مضايقات التحرش الجنسى إلى الإنفاق الفاحش مثل تكلفة (٦٠٠ دولار) لمقعد حمام ، أو إهدار (بلايين الدولارات لصناعة طائرات لا تطير) ؟ ومن الطبيعى أن ينظر معظم الأمريكيين إلى خصخصة البنتاجون على أنها عملية عبثية ، مؤكدين أن الدفاع القوى إنما هو أولوية قومية عامة . ونحن نعتقد أنه بدلاً من أن نستمر فى تحطيم التعليم العام، علينا أن نجعله أولوية عامة . ونظل نعتقد أن حماية الديمقراطية ترتكز على تكوين مواطنة متعلمة ذكية بدرجة أكبر من صنع قنابل ذكية .

وفى مواجهة فكرة السوق التى تتخلل قضية الإصلاح التربوى فى الولايات المتحدة أعاد كثير من التربويين الليبراليين والليبراليين الجدد اكتشاف آراء باولو فريرى كبديل عن التدجين المحافظ للتعليم ، والذى يسوى بين الديمقراطية وإيديولوجية السوق الطليق. بيد أن جزءاً من مشكلة بعض هؤلاء التربويين غير النقديين تتجسد فيما قاموا به من اختزال لأفكار فريرى الرائدة فى تحرير التربية ، إلى مجرد طريقة فى التدريس .

وفى نظر (ستانلى أرونوفتش) تَمكَّن تقديس (الطريقة) من أن يمتص آراء فريرى الفلسفية ليدخلها فى الهاجس المرضى السائد بعملية (الطريقة) فى التعليم الأمريكي، وهو اتجاه يشيع لدينا فى جميع العلوم الإنسانية والاجتماعية، حيث يعنى بالطرق التى تتصل بالتحقق من المعرفة ، وفى التدريس من خلال نقل المعرفة إلى طلاب لم يتهيأوا لها بعد .

إن عبادة الطريقة وسحرها يَحُول بأسلوب خفى دون القدرة على اتباع ما يقرره فريرى من ضرورة عدم الاستيراد أو التصدير للطرائق المنهجية . وفى محادثة طويلة مع دونالدو ماسيدو حول هذه القضية ، ورد من بين ما قاله فريرى " يا دونالدو : أنا لا أريد أن أُسْتورَد أو أُصَدَّر ؛ إذ إنه من المستحيل أن تصدَّر ممارسات تربوية دون

إعادة صياغتها . وأرجوك أن تبلغ زملاءك من التربويين الأمريكيين ألا يـــستوردونني . وعليك أن تطلب منهم إعادة تشكيل أفكارى وإعادة كتابتها " .

وفى هذا الصدد نلتقى مع أولئك المربين من أشباه التقدميين ، يعلنـــون بطريقـــة قاطعة أن ثمة حاجة إلى " تمكين " الطلاب وإكسابهم المقدرة على الفعل والثقة بالنفس. ومع ذلك .. فإن هؤلاء المربين يكشفون عن زيفهم من خلال لغتهم ، حتى لنجـــدهم بدلاً من أن يسعوا إلى بناء مؤسسات وآليات تربوية تتيح الفرص فى تزويد الطـــلاب بمصادر القوة ، يتوقفون عند الصياح بطريقة المشاعر الوالدية العاطفية " نحن فى حاجة إلى تمكين الطلاب " .. إن مثل هذا الموقف يؤدى عادة إلى تكوين ما يمكن أن نسميه موقف " السماسرة " .

والحاصل أنه فى الوقت الذى يطالبون فيه المتعلمين الفقراء بتمكين الطلاب ، إنما يحققون بالفعل تقوية مراكزهم الشخصية المتميزة . وسوف أوضح هذه النقطة بالمثـــال التالى : إنه يدل على كيف أن معلماً تقدميًّا كان يعمل فى مشروع لمكافحة الأميـــة فى مجتمع محلى قد ارتكب خيانة لخطابه الليبرالى ، الذى كان يسعى من خلاله إلى "تمكين" ذلك المجتمع . لقد كان من بين نشاطات إحدى الهيئات التى تتولى تنمية ذلك المجتمـــع اختيار إحدى الزميلات للمساعدة فى اقتراح وضع برنامج لتعليم الرياضيات . وقـــد رحبت الزميلة بذلك ووافقت على القيام بهذه المهمة . وكان من بـــين مقاصـــدها أن تؤلف بعض المواد والطرق والإمكانات المحلية ، التى تمكن أعضاء هذا المجتمع ومؤسساته من أخذ المبادرة فى هذه المهمة التعليمية ، بحيث تقلل من الحاجة إلى وجودها المـــستمر بينهم ، للقيام بتقديم المساعدة المطلوبة فى عملية التعليم والتعلم . وبعبـــارة أخـــرى ، ينطلق ذلك المنحى من اعتبار أن درجة نجاحنا فى مثل هذه المشروعات مرهونة بتشكيل البنى والآليات التى تمكن أفراد المجتمع المحلى من أن يحققوا تمكـــين أنفـــسهم ، دون أن يتطلب ذلك ضرورة وجودنا بينهم وتقديم خبراتنا لهم . وهذا يعنى أن أفراد هذا المجتمع قد تتوطن الخبرة لديهم باعتمادهم على أنفسهم .بما يحول دون قيام نمط من الاســـتعمار الجديد فى ذلك المجتمع .

وعندما أطلع المعلم التقدمى على مقترحات الزميلة ، التى اختيرت لهــذه المهمــة أبدى أول الأمر ما يوحى بالقبول ولم يظهر ما يدل على معارضته . ومع ذلك فقــد تغير موقفه بعد مضى بضعة أسابيع عقب أن علم بأن منهج الرياضيات ، الذى وضعته الزميلة بالتعاون مع بعض أعضاء المجتمع المحلى قد حاز قبولاً أفضل من منهجه المعتمــد على خلفيته الأكاديمية الجامعية . عندئذ استثير وأبدى سخطه بطريقة عاصفة ، وحاول تبرير ذلك بأن الزميلة ولجنتها لم تتبع الأسلوب الديمقراطى فى إعداد ذلك المنهج ، بعدم دعوته للمشاركة فى إعداده . ويفهم من ذلك أن عملية المشاركة الديمقراطية لديه إنما تعنى بالضرورة مشاركته هو شخصيًّا ، مع أنه ليس من أعضاء ذلك المجتمع المحلــى ، الذى كانت الهيئة المانحة للمساعدة تقوم بمشروعها لخدمته .

ويبدو أنه فى نظر ذلك المعلم التقدمى أن المرء يمكن أن يتحدث عــن الــتمكين واكتساب غيره قوة العمل طالما أنها لم تقترب منه ، أو تهدد إمكاناته وقوته الشخصية باعتباره " خبيراً " فى مركز قوة . ومثل هذا المنحى الداعى إلى التمكين لغــيره ، إنمــا يتمخض عن منحه تمكيناً من النوع الوالدى العاطفى .

وعندما أشير إلى التناقضات الإيديولوجية الواضحة فى سلوك ذلك المعلم التقدمى، كان رد فعله سريعاً عنيفاً وبصورة آلية " سوف أكون فى أشد حــالات الغــضب إذا حصلوا على معونتهم ولم نحصل نحن على معونتنا " وقد اتضح لى تمامــاً أن الالتــزام السياسى الحقيقى لدى المعلم التقدمى ، إنما يتوقف على المدى الذى يظل فيه موقعــه كخبير غير مهدد. وهذا يعنى أيضاً أن "خبير" محو الأمية الذى يحب مؤسسته ، والذى يحرص على هذا الموقع المتميز فى داخلها ، لم يكن مستساغاً لديه موقع " خبير " خارج مؤسسته من قبل أعضاء المجتمع الذين يشعرون بمقدراتهم المحلية .

ويبدو أن هذه الخبرة قد تركت أثراً عميقاً فى ذلك المعلم التقدمى ، الذى يصطنع ذلك التوجه الاستعمارى الوالدى العطوف ، مما دعاه إلى أن يصرح فى محفــل عــام بإحدى المؤتمرات الكبرى بأن سكان المجتمعات المحلية ليسوا فى حاجــة إلى الالتحــاق بالجامعة ؛ لأنهم على معرفة أكثر من تلك التى يلم بها أساتذة المجتمع الجامعى ، ومن ثم

فإن الجامعة لن تستطيع أن تقدم لهم إلا النذر اليسير . ومن مفارقات الصدف أنـــه فى الوقت الذى صرح فيه بذلك ، كان منشغلاً بالانتقال من حى فى داخـــل المدينـــة إلى ضاحية راقية ؛ حتى يتمكن أطفاله من الالتحاق بمدارس أفضل .

ومن الأمثلة المشابهة للمثل السابق ، ما ظهر فى اجتماع حول منحـــة مـــشروع لتطوير العلاقة بين الجامعة والبيئة المحيطة بها .. لقد حدث فى أثناء ذلك الاجتمـــاع أن قام أستاذ ليبرالى أبيض البشرة بالاحتجاج على غياب ممثلين من أعضاء تلك البيئـــة . والواقع أنه حين أراد أن يثمن دور القاعدة المحلية فى هذا المشروع ، وقع بصورة سريعة فى مأزق الوالدية الرومانسية فى إعلانه بأن أفراد ذلك المجتمع يمتلكون من المعرفة أكثـــر مما لدى أساتذة الجامعة ، وينبغى دعوتهم فى هذا المجال لتعليم الأساتذة بدلاً من تعلـــيم الأساتذة لهم . ولا يقتصر ما يؤديه هذا الموقف على حرمان أعضاء البيئة تحت الدراسة من الاستفادة برأس المال الثقافى لدى أولئك الأساتذة ، وإنما يشوه حقيقة السياق الذى من المفترض أن تكون فيه الثقافة الجامعية زاداً لا غنى عنه فى أية محاولـــة للـــتمكين أو اكتساب المقدرات . هذا إلى جانب ما يفوح به من رائحة الكرم المزيف النـــابع مـــن مشاعر الوالدية الرومانسية المصطنعة ، والتى يعارضها فريرى أشد المعارضة .

إن تربية المقهورين المدفوعة بحركة الإنسانية الأصيلة (ولـــيس ادعـــاء الحركـــة "الإنسانوية") تطرح نفسها عادة على أنها تربية الإنسان . وهى تربية تبـــدأ بالمـــصالح الأنانية للقاهرين (أنانية مغلفة بالكرم المزيف فى مشاعر الوالدية) وتجعل من المقهـــورين موضوعات لإنسانيتها ، ومع ذلك .. فإنها تتضمن وتجسد صور القهر كذلك . وهى فى نهاية التحليل أداة من أدوات تجريد الإنسان من إنسانيته .

ومن ثم فإن التوجه الوالدى التربوى يمثل نزعات النرجسية والمغالاة فى حب الذات، والتى يتسم بها أفراد الطبقة الوسطى . وهذا التوجه هو الذى يُظهر أشباه التربويين الذين ينتمون إلى التناول الذرائعى النفعى للمعرفة ، وهو ما يطبقونه فى برامج المتعلمين ؛ حتى تتلاءم مهاراتهم مع مطالب مجتمعنا المعاصر ، كما يطرحه التربويون

المحافظون . ثم إن التعليم الذرائعى النفعى يتضمن فى نظرهم أعلى مستويات المعرفة ، من خلال التخصص المفرط فى المجالات العلمية . ويُعتبر أشباه التربويين من الفئات التى تدعم هذا التعليم الذرائعى إلى الحد ، الذى اختزلوا فيه طريقة الحوار التى صاغها فريرى إلى نوع من التخصص .

وفى تعبير آخر ، يمكن أن يقال على هذا الأساس أن ثمة معالم مشتركة بين التعليم الذرائعى المقدم للفقراء فى صورة كفاءة قائمة على اكتساب مهارة محدودة المجال بالطريقة البنكية من ناحية ، ومن ناحية أخرى بين التعليم الذرائعى المقدم للأغنياء، والذى يعتمد على صور ضيقة فيما تقدمه الجامعات فى مجال التخصص المهنى .

وهذا يعنى أن كلا النوعين من التعليم يحول دون تنمية التفكير النقدى الذى يمكِّن المتعلم من قراءة العالم قراءة ناقدة ، ومن فهم الأسباب والترابطات التى تكمن وراء الحقائق . إن التوجه الذرائعى النفعى فى التعليم ، حتى فى أعلى مستويات التخصص (بما فى ذلك الطريقة كمجال للتخصص) يؤدى إلى استئناس الوعى وتدجينه ، عن طريق عدم الارتباط المنطقى المتواصل بين الاختزال والانحصار فى تعلم التخصص من ناحية ، وقراءة الكون الذى يقع فى سياقه ذلك التخصص من ناحية أخرى .

والواقع أن العجز فى عدم الربط بين قراءة الكلمة وقراءة العالم ؛ إذا لم تتم معالجته سوف يؤدى إلى مزيد من الوهن فى مؤسساتنا الديمقراطية فوق ضعفها الحالى . وسوف يؤدى كذلك إلى استمرار علاقات القوة غير المتكافئة والتى تعتبر من خصائص الطبيعة المزيفة للديمقراطيات المعاصرة. وفى أدنى مستويات التعليم الذرائعى سوف نجد شبه المتعلم القارئ ، لكنه غير قادر على قراءة العالم . وفى أعلى مستويات التعليم الذرائعى التى تم اكتسابها من خلال التخصص .. سوف نجد نمطاً آخر للمتعلم الذى يقرأ النص فى مجال تخصصه ، ولكنه يجهل كافة مجالات المعرفة الأخرى التى تشكل عالم المعرفة . ولقد أطلق الفيلسوف جوزى أورتيجا أى جاست على هذا المتخصص شبه المتعلم تسمية (الجهول المتعلم - بالإسبانية ليرند اجنوراموس) . ويعنى بهذا : أنه ليس متعلماً..

فهو رسميًا (جاهل) فى كل ما هو خارج تخصصه ، لكنه فى الوقت ذاته ليس جاهلاً لأنه (عالم) يعرف جيداً كل ما يتضمنه قطاعه المعرفى الضيق عن العالم " .

ونظراً لأن (الجهول المتعلم) مَعْنِىٌّ أساساً بقطاعه المحدود من العالم منعزلاً عن مجالات المعرفة الأخرى ، فلن يكون قادراً على الربط بين التدفق المعلوماتى حتى يكتسب القراءة النافذة للعالم . وفى فكر فريرى تتضمن قراءة العالم " الإدراك الدينامى للعلاقة بين أدنى مستويات الحساسية المتسقة للعالم والإدراك الأكثر اتساقاً للعالم " . وهذا ما يفسر كون الأطباء المتخصصين فى الولايات المتحدة ممن يسهمون فى التقدم التكنولوجى الهائل فى مجال الطب ، قاصرين عن الإدراك والفهم لظاهرة صعوبة الإفادة من هذه التكنولوجيات الطبية لأكثر من (٣٠) مليون أمريكى ، ولما يوجد لدينا من أعلى معدلات وفيات الأطفال فى العالم المتقدم .

وأخيراً نود أن نقترح تربية مضادة لمفهوم " الطريقة " رافضة جمود النماذج وتوجهات الأنماط الإرشادية (براديم) . والتربية المضادة للطريقة تدفعنا إلى اعتبار الحوار صورة من صور الممارسة الاجتماعية ؛ حتى يكون تبادل الخبرات معتمداً على التأمل والعمل السياسى .

فالحوار كممارسة اجتماعية يستدعى إعادة اكتشاف صوت المقهورين كشرط جوهرى من أجل تحرير الإنسان. ثم إن التربية المضادة لمفهوم "الطريقة" تكسبنا القدرة على التحرر من الممرات المألوفة ، التى نسير فيها بما لدينا من أفكار يقينية أو تخصصية.. إنها ترفض ميكنة الفكر . ومبلغ القول إنها تستدعى أفكار فريرى الرائدة ، وهى الأفكار التى ترشدنا إلى طريق الحقيقة الناقدة ، وإعادة توزيع الأولويات فى شئون كرامتنا المهددة ، واسترداد إنسانيتنا . وليس أجدر من باولو فريرى نفسه بالحديث الموجه ضد اختزال الطريقة وطرح المشكلة إلى مجرد طريقة : " إن طرح المشكلة تعليم ثورى مستقبلى ، وهو لذلك تنبؤى .. إنه تعليم يناظر الطبيعة التاريخية للإنسان . إنه لذلك يؤكد أن الناس فى كيانهم الوجودى قادرون على تجاوز أنفسهم . ثم إنه لذلك يتماشى مع الحركة التى تشغل الناس فى دائرة الوعى بعدم اكتمالهم ، وهى حركة لها نقطة بداية ، كما أن لها موضوعاتها ومقاصدها " .

ولا تقتصر التربية المضادة للطريقة التى يلتزم بها فكر فريرى على أنها تعليم ثورى مستقبلى ، وإنما تعلن فى الوقت ذاته براعة إحدى قصائد (أنطونيو ماكيدو) ومطلعها " أيها المسافر ، ليس ثمة طريق . إنما نشق الطريق حين نمشى فيه " . وفضلاً عن ذلك ، فإن نظرة فريرى إلى التعليم على أنه ثورة مستقبلية تتطلب مهارات أساسية أخرى . وتلك هى المهارات التى يناقشها فى هذا الكتاب، والتى نادراً ما كانت تقدم لنا فى برامج إعدادنا كمعلمين ، ومنها :

" ينبغى علينا أن نتجاسر ، بكل ما فى هذه الكلمة من معان ، على أن نتكلم عن الحب دون خوف من أن نوصف بأننا موضوع للسخرية ، أو بأننا عاطفيين أو غير علميين ، أو حتى ضد الفهم العلمى . واجب علينا أن نقول بطريقة علمية ، وليس من قبيل الثرثرة ، أننا نَدْرُس ، وأننا نتعلم ، وأننا نعلم، وأننا نعرف بكل أبداننا. وحين نقوم بكل هذه المهمات إنما نمارسها بأحاسيسنا، وعواطفنا، ورغباتنا، مقرونة بالخوف والشك والحماسة وكذلك بالتفكير النقدى. ومع ذلك فإننا لا نقوم أبداً بالدراسة أو التعلم أو التدريس أو المعرفة بالحالة الأخيرة أى بالتفكير النقدى وحده .. علينا أن نتجاسر على ألا نفصل مطلقاً بين المعرفة والعاطفة .. علينا أن نتجاسر على كل ذلك ؛ لكى نتمكن من الاستمرار فى التدريس إلى أطول مدة تحت الظروف التى نعلمها جميعاً، من مرتبات متدنية ، وافتقاد الاحترام ، والخطر الجاثم دائماً بأننا فريسة للساخرين .. علينا أن نتعلم كيف نتجاسر لكى نتجاسر ؛ على رفض بيروقراطية العقل التى نتعرض لها كل يوم .. علينا أن نتجاسر من أجل أن نواصل التجاسر حتى لو كان عدم التجاسر أكثر نفعاً من الناحية المادية " .